

أول واجب على المكلف

عبادة الله تعالى

وضوح ذلك من كتاب الله ودعوات الرسل

للشيخ عبد الله بن محمد الغنيمان

رئيس قسم الدراسات العليا

بالجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة





دمنهور ت. ٣٢٨١٩٩ /٠٤٥

أول واجب على المكلف

عبادة الله تعالى

وضوح ذلك من كتاب الله ودعوات الرسل

بسم الله الرحمن الرحيم

أول واجب على المكلف

عبادة الله تعالى

ووضوح ذلك من كتاب الله ودعوات الرسل

للشيخ عبد الله بن محمد الغنيمان
رئيس قسم الدراسات العليا



دمنهور ت - ٠٤٥/٣٢٨١٩٩

الطبعة الأولى
١٤١٠ هـ = ١٩٨٩ م

ليته للنشر والتوزيع
دمنهور . هاتف ٣٢٨١٩٩ / ٠٤٥
الإسكندرية . ميدان المرسى أبو العباس
مجموعة أبو بكر الصديق رقم ١٥

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الغنى الحميد ، المبدئ المعيد ، غنى بذاته عن كل من سواه ، وكل من سواه فقير إليه ، وصائر إليه ، وهو تحت قهره وتصرفه ، وصلى الله وسلم على عبده ورسوله محمد وعلى آله وصحبه وأتباعه إلى يوم الدين .

وبعد ، فإن الله تعالى خلق الإنسان وفضله على كثير من خلقه ، بالعقل والفكر والنطق والبيان ، ووهبه القدرة على الكسب والقوة على العمل ، ليكون مؤهلًا للأمر والنهى ، وجعل له دارين ، دارًا للابتلاء والاختبار والتمييز بين الصالح والفاسد ، ومحلا لكسب الأعمال ، التى بها يستوجب الثواب أو العقاب ، وجعل لها مدة محددة ، وأجلًا قصيرًا ، ثم ينقل إلى الدار الأخرى التى لا تنتهى ولا تنقطع ، قال تعالى : ﴿ **تبارك الذى بيده الملك وهو على كل شىء قدير * الذى خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملًا وهو العزيز الغفور** ﴾ .

فالله تعالى أوجد الإنسان بعد أن كان معدومًا ، وأعطاه ما يحتاج

إليه فى حياته وما يكون سببًا لسعادته من العقل والفكر الذى يميز ما ينفعه مما يضره وما يلزم لذلك من السمع والبصر ، والقوى التى يتمكن بها من العمل . قال تعالى : ﴿ **هل أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئًا مذكورًا * إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج نبتليه فجعلناه سميعًا بصيرًا * إنا هديناه السبيل إما شاكرًا وإما كفورًا** ﴾ [الإنسان ١ - ٣] فقوله تعالى : ﴿ **ليبلوكم أيكم أحسن عملا** ﴾ . وقوله : ﴿ **نبتليه** ﴾ هذا ما خلق الإنسان من أجله ، وقد بين ذلك تعالى بيانًا واضحًا وضوح النهار .

قال تعالى : ﴿ **ولقد بعثنا فى كل أمة رسولًا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت فمنهم من هدى الله ومنهم من حقت عليه الضلالة** ﴾ . [النحل : ٣٦] . وقال تعالى : ﴿ **وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحى إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون** ﴾ . [الأنبياء : ٢٥] .

وفى القرآن آيات كثيرة تنص على وجوب عبادة الله تعالى ، وتبين لزوم ذلك للإنسان لزوم أمر أوجبه الله تعالى عليه ، وأكثر تعالى من التهديد والوعيد لمن تركه ، وأعرض عنه ، ومن الترغيب والوعد بالجزاء الجميل لمن امتثل ذلك واتبع الرسل ، ومع وضوح هذا الأمر وكثرة ما أحيط به من ترغيب فى فعله فى الدنيا والآخرة ، ومن

ترهيب لمن أعرض عنه وجانبه مع ذلك كله فقد ضل عنه أكثر الخلق إما جهلًا ، وإما عمدًا وعنادًا ، وذلك أن الذى يحمل العبد على امتثال أمر الله واتباع رسله هو قوة الإيمان بالله ، وبما أعده لمن آمن به وعمل صالحًا وما أعده لمن عصاه وبارزه بالمعادات والمحاربة .

العلم بما يؤمن به العبد شرط فى صحة إيمانه

ومع الإيمان فلابد من العلم بأمره وشرعه ، ومع فَقْد هذين الأمرين يستحكم الضلال ، والبعد عن كل خير ، لهذا صار أهم ما على العبد معرفته ، ما أوجبه الله عليه ، والعمل به ، وأول ما أوجب الله تعالى على العبد وأعظمه هو الإيمان به تعالى وبرسوله ، ثم الاهتداء إلى ذلك وتفاصيله بالوحى الذى جاء به النبى ﷺ قال تعالى : ﴿ **قل إن ضللت فإنما أضل على نفسى وإن اهتديت فبما يوحى إلى ربى** ﴾ . [سبأ : ٥٠] فالاهتداء يكون بالوحى ولهذا أمر الله تعالى أهل العقل بتدبر القرآن واستماعه والإنصات لتلاوته ، وحض فيه على التدبر والتفكر والتذكر والعقل والفهم والتأثر منه بالوجل ، والبكاء والخشية لما فيه من العلم والهدى ، والمقصود من إرسال الرسل إلى العباد ، وإنزال الكتب عليهم إصلاح أحوالهم فى الدنيا والآخرة ، وأن يعرفوا ما خلقوا من أجله ، ويصلوا إليه ، وهو عبادة ربهم وحده لا شريك له .

العبادة النافعة عبادة القلب الموجبة لعمل الجوارح

والعبادة أصلها عبادة القلب ، المستلزمة لعبادة الجوارح ، فإن القلب هو الملك ، والأعضاء جنوده ، وإذا صلح الملك صلحت الجنود ، كما قال ﷺ : « ألا إن فى الجسد مضغة إذا صلحت صلح لها سائر الجسد ، وإذا فسدت فسد لها سائر الجسد ألا وهى القلب »[١] .

والقلب بعبادة الله تعالى والاستعانة به : معتصم مستمسك قد لجأ إلى ركن وثيق ، واعتصم بالدليل الهادى والبرهان المتين ، فلا يزال فى زيادة من العلم والإيمان ، أو سلامة من الجهل والضلال ، سالمًا من جهل أهل التصوف وعباد الخلق ، وضلال المتكلمين أهل الشك والحيرة والخذلان . والعبد لما كان مخلوقًا مربوبًا ، عاد فى علمه وعمله إلى خالقه وباريه فبه يهتدى وله يعمل ، وإليه يصير ، فلا غنى له عنه ، وانصرافه إلى غيره هو عين هلاكه وفساده ، وبالله له عن كل شيء عوض ، وليس لكل شيء عن الله عوض ، وليس للعبد صلاح ولا فلاح إلا بمعرفة ربه وعبادته ، فإذا حصل له ذلك فهو الغاية المرادة له والتى خلق من أجلها ، فما سوى ذلك إما فضل نافع أو فضول غير نافعة أو فضول ضارة ، ولهذا صارت دعوة الرسل

---

(١) رواه البخارى ومسلم انظر الفتح ج ١ ص ١٢٦ و ج ٤ ص ٢٩٠ ، ومسلم ج ٣ ص ١٢٢٠ .

لأممهم إلى الإيمان بالله وعبادته ، فكل رسول يبدأ دعوته بذلك كما يعلم من تتبع دعوات الرسل فى القرآن ، بخلاف الطرق الكلامية الفلسفية فإنهم يبدأون بنفوسهم فيجعلونها هى الأصل الذى يفرعون عليه ، فيتكلمون فى إدراكاتهم للعلم ، أنه مرة يكون بالحس ومرة بالعقل ، أو بهما .

ويجعلون العلوم الحسية والبديهية هى الأصل الذى لا يحصل علم إلا بها على حد زعمهم ، مثل الأمور الطبيعية والحسابية ، والأخلاق ، وبنوا سائر العلوم على هذه الأمور الثلاثة ، ولهذا كانوا يمثلون بها فى أصول العلم والكلام كقولهم : إن الواحد نصف الاثنين ، والعشرة أكثر من الخمسة ، والجسم لا يكون فى مكانين ، والضدان لا يجتمعان كالسواد والبياض ، هذا فى الحسابية والطبيعية ، وأما الأخلاق فمثل استحسان العلم ، والعدل والعفة والشجاعة .

ثم إذا تجاوزوا هذه الأمور إلى العالم العلوى فمقصودهم إثبات خالق العالم والدلائل التى بها تثبت النبوة على طريقهم فإذا ثبتت النبوة تلقوا عنها السمعيات ، وهى الكتاب والسنة والإجماع ، وهذه الطريقة فيها فساد كثير فى وسائلها ومقاصدها كما بين ذلك شيخ الإسلام ابن تيمية فى كثير من كتبه ، أما الوسائل مع صعوبتها ففيها خطورة ومزلات عظيمة وأما مقاصدها فغايتها إثبات ربوبية الله تعالى

للكون فهى كما قيل لحم جمل غث ، على رأس جبل وعر ، لا سهل فيرتقى ، ولا سمين فينتقل ، مثال ذلك قولهم كما فى نهاية المرام والإرشاد وغيرهما : « إن الله لا يعرف إلا بإثبات حدوث العالم ثم الاستدلال بذلك على محدثه ، والدليل على أن العالم حادث ، ما فيه من الأعراض ، والأعراض هى صفات الأجسام »[1] . وجمهور المتكلمين يستدلون بهذا الدليل بعينه على نفى صفات الله تعالى حيث قالوا : إن حركات الأجسام وأعراضها هو الذى دل على حدوثها ، وسموا الصفات أعراضًا مثل العلم والرحمة والغضب والرضا وغير ذلك وقالوا : إذا اتصف بذلك صار محلا للحوادث ، وما كان محلا للحوادث فهو حادث .

والقدرية من المعتزلة يعتقدون أن إثبات الرب تعالى لا يمكن إلا بعد اعتقاد أن العبد هو المحدث لأفعاله ، وإلا انتقض الدليل . وكثير منهم جعل سلوك هذا متعينًا لأنه الموصل إلى معرفة الله ، ومن لم يسلك ذلك لم يعرف ربه . وبطلان هذا معلوم بالكتاب والسنة وإجماع أئمة المسلمين . قال الله تعالى : ﴿ **وما أمروا إلا ليعبدوا**

---

(١) انظر غاية المرام ص ٧ وانظر الإرشاد ص ١٨ .

الله مخلصين له الدين ﴾ [البينة : ٥] . وقال تعالى : ﴿ فاعبد الله مخلصًا له الدين ﴾ . [الزمر : ٢] . وقال : ﴿ يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذى خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون ﴾ . [البقرة : ٢١] . وهذا كثير فى القرآن يأمر الله تعالى أن يعبد ويخلص له الدين ، وأن يؤمن به ابتداء ، وكذلك النبى ﷺ لم يدعُ الناس إلى النظر ابتداء بالاستدلال على وجود الله تعالى ، ولا إلى مجرد إثبات وجوده ، بل أول ما دعاهم إليه شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله ، وكان يأمر رسله والدعاة الذين يبعثهم لنشر دعوته بأن يبدؤوا بدعوة الناس إلى أن يوحدوا الله أولًا بأن يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله كما فى حديث معاذ المتفق على صحته حينما بعثه إلى أهل اليمن قال : « إنك تأتى قومًا من أهل الكتاب ، فليكن أول ما تدعوهم إليه شهادة أن لا إله إلا الله ، وأن محمدًا رسول الله ، فإن هم أجابوك لذلك فأعلمهم أن الله افترض عليهم خمس صلوات فى اليوم والليلة ، فإن هم أجابوك لذلك فأعلمهم أن الله افترض عليهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم فترد فى فقرائهم »[1] .

---

(١) البخارى انظر الفتح ج ٣ ص ٢٦١ ، ٣٢٢ ، ٣٥٧ ومواضع أخر ، وانظر مسلم ج ١ ص ٥٠ .

وقوله فى حديث أبى هريرة الذى فى الصحيحين وحديث ابن عمر : « أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأنى رسول الله ، فإذا فعلوا ذلك عصموا منى دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله »[1] . وقد أجمع الصحابة وأئمة المسلمين من بعدهم على أن الكافر يدعى إلى الشهادتين مهما كانت عقيدته وعمله فإذا أجاب ونطق بالشهادتين حكم بإسلامه ظاهرًا ، فإن كان صادقًا فى نطقه فهو مسلم ظاهرًا وباطنًا ، وإن كان كاذبًا فى الباطن فهو منافق .

وليس فى كتاب الله أن النظر أول الواجبات ، بل ولا فيه إيجاب النظر على كل أحد ، وإنما فيه الأمر بالنظر لبعض الناس الذين لا يحصل لهم الإيمان إلا به كقوله تعالى : ﴿ **أولم يتفكروا ما بصاحبهم من جنة إن هو إلا نذير مبين * أو لم ينظروا فى ملكوت السماوات والأرض وما خلق الله من شىء وأن عسى أن يكون قد اقترب أجلهم فبأى حديث بعده يؤمنون** ﴾ . [الأعراف : ١٨٤ ، ١٨٥] . فقول الجوينى مثلا فى الإرشاد (ص ٣) : « أول ما يجب

---

(١) البخارى انظر الفتح ج ٣ ص ٢٦٢ ج ١٢ ص ٢٧٥ ، وانظر مسلم ج ١ ص ٥٢ ، ٥٣ .

على العاقل البالغ ، باستكمال سن البلوغ أو الحلم شرعًا ، القصد إلى النظر الصحيح المفضى إلى العلم بحدوث العالم » ومثل ذلك قال الرازى (انظر المحصل ص ٤٧) وكذلك الإيجى فى المواقف (ص ٣٢) وغيرهم ، وهذا كلام مخالف لكتاب الله تعالى ولما علم من دعوة رسول الله ﷺ ، ولما أجمع عليه أئمة المسلمين ، وإذا سلم لهؤلاء ، « أن أول الواجبات هو النظر ، أو المعرفة أو حتى الشهادتين كما هو الصحيح . فكيف يجب على البالغ أن يفعله عقب البلوغ وقد فعله قبل ذلك ، وخصوصًا إذا كان النظر مستلزمًا للشك المنافى لما حصل له من المعرفة والإيمان ، فيكون التقدير أن يقال : اكفر ثم آمن ، واجهل ثم اعرف وهذا كما أنه محرم شرعًا ، فهو ممتنع فى العقل ، فإن تكليف العالم الجهل من باب تكليف مالا يقدر عليه ، فإن الجاهل يمكن أن يصير عالمًا أما العالم فلا يقدر أن يصير جاهلًا » .

كما أن من رأى الشيء وسمعه لا يمكن أن يقال لا يعرفه ، فمن كان الله قد أنعم عليه بالإيمان وشرح صدره للإسلام قبل بلوغه كيف يؤمر بما يناقض إيمانه ومعرفته .

قال ابن المنذر : « أجمع كل من أحفظ عنه من أهل العلم على أن الكافر إذا قال : أشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله ، وإن كل ما جاء به محمد حق ، وأبرأ من كل دين خالف

دين الإسلام ، وهو بالغ صحيح العقل أنه مسلم ، فإن رجع بعد ذلك فأظهر الكفر كان مرتدًا ، يجب عليه ما يجب على المرتد » (الأوسط : ص ٧٣٥) .

والسلف والأئمة متفقون على أن أول ما يؤمر به العباد الشهادتين ، وأن من فعل ذلك قبل البلوغ لم يؤمر بتجديد ذلك بعد البلوغ .

مجرد المعرفة لا تكفى فى الإيمان

والشهادة تتضمن الإقرار بالله تعالى وبرسوله ، لكن مجرد معرفة الله تعالى لا يصير بها الإنسان مؤمنًا وإن كان يعلم أنه رب كل شىء فلابد للإيمان من شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله ، وهذا هو الذي دل عليه كتاب الله تعالى . قال الله تعالى : ﴿ **وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون** ﴾ . [الذاريات : ٥٦] فالعبادة هى الغاية المقصودة من الخلق التى أرادها الله منهم بأمره وشرعه ، وبها يحصل محبوبه تعالى ، وتحصل سعادتهم ونجاتهم ، وهذا لا يخالف كون كثير منهم لم يعبده ، لأن الله تعالى لم يجعلهم عابدين له ، لما فى ذلك من تفويت محبوبات له أخرى ، هى أحب إليه من عبادة أولئك وحصول مفاسد أخرى هى أبغض من معصيتهم كما قال تعالى :

﴿ **ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم** ﴾ . [هود : ١١٩] فهو تعالى أراد بخلقهم ما هم صائرون إليه من الرحمة والاختلاف إرادة كونية قدرية ، ففى قوله تعالى : ﴿ **وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون** ﴾ . ذكر الغاية التى أمروا بها ، وفى قوله تعالى : ﴿ **ولا يزالون مختلفين** ﴾ . ذكر الغاية التى يصيرون إليها ، وكلاهما مرادة له تعالى تلك مرادة بأمره وشرعه ، والموجود منها مراد بخلقه وأمره ، والأخرى مرادة بخلقه ، والمشروع منها مراد بخلقه وأمره ، وهذا معنى ما يروى عن على بن أبى طالب فى قوله تعالى : ﴿ **إلا ليعبدون** ﴾ . قال معناه : إلا لآمرهم أن يعبدون ، وأدعوهم إلى عبادتى ، وقاله مجاهد أيضا .

وقال ابن عباس : ﴿ **إلا ليعبدون** ﴾ . ليقروا لى بالعبودية ، طوعًا وكرهًا .

وقال السدى : خلقهم للعبادة ، فمن العبادة عبادة تنفع ، ومنها عبادة لا تنفع كما قال تعالى : ﴿ **ولئن سألتهم من خلق السماوات والأرض ليقولن الله** ﴾ . [لقمان : ٢٥] فهذا منهم عبادة ولكنها لا تنفعهم ، وقال الكلبى : إلا ليوحدونى ، فأما المؤمن فيوحده فى الشدة والرخاء ، وأما الكافر فيوحده فى الشدة والبلاء دون النعمة والرخاء ، كما قال

تعالى : ﴿ فإذا ركبوا فى الفلك دعوا الله مخلصين له الدين ﴾ . [العنكبوت : ٦٥][1] .

معرفة الناس لربهم من لوازم خلقهم

وهذه الأقوال تبين أن جميع الإنس والجن مقرون بالخالق معترفون به ، خاضعون لعبوديته طوعًا وكرهًا ، وهذا يقتضى أن هذه المعرفة من لوازم نشأتهم لا ينفك عنها أحد منهم ، وبه يعلم أن أصل الإقرار بالله تعالى ، والاعتراف به ربًّا مستقر فى قلوب جميع الإنس والجن ، وأنه من لوازم خلقهم ، ضرورى فيهم ، وإن قدر أن الإقرار بالرب تعالى يحصل بسبب يعرض للانسان في حياته فهو في الحقيقة انما يظهر بذلك ويبرز ، وهذا والله أعلم هو الإقرار والشهادة المذكورة فى قوله تعالى : ﴿ وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى شهدنا أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين * أو تقولوا إنما أشرك أباؤنا من قبل وكنا ذرية من بعدهم أفتهلكنا بما فعل المبطلون ﴾ . [الأعراف : ١٧٢ ، ١٧٣] . وشهادة المرء على نفسه فى القرآن يراد

---

(١) انظر تفسير ابن كثير ج ٧ ص ٤٠١ ، ٤٠٢ . ط الشعب .

بها إقراره ، فمن أقر بحق عليه فقد شهد به على نفسه كما قال تعالى : ﴿ **ما كان للمشركين أن يعمروا مساجد الله شاهدين على أنفسهم بالكفر** ﴾ . [التوبة : ١٧] . لأنهم كانوا مقرين بما هو كفر ، فصار ذلك شهادة منهم على أنفسهم وقال تعالى : ﴿ **يا معشر الجن والإنس ألم يأتكم رسل منكم يقصون عليكم آياتى وينذرونكم لقاء يومكم هذا قالوا شهدنا على أنفسنا وغرتهم الحياة الدنيا وشهدوا على أنفسهم أنهم كانوا كافرين** ﴾ . [الأنعام : ١٣٠] . فشهادتهم على أنفسهم هو إقرارهم على أنفسهم .

وقولهم : ﴿ **بلى شهدنا** ﴾ أى أنهم أقروا بأن الله ربهم ، ومن أخبر بأمر عن نفسه فقد شهد به على نفسه . وقوله : ﴿ **وأشهدهم** ﴾ يدل على أنه هو الذى جعلهم شاهدين على أنفسهم بأنه ربهم ، وهذا الإشهاد مقرون بأخذهم من ظهور آبائهم ، وهو أخذ المنى من أصلاب الآباء ونزوله فى أرحام الأمهات فالمعنى : اذكر حين أخذوا من أصلاب الآباء فخلقوا حين ولدوا على الفطرة مقرين بالخالق شاهدين على أنفسهم بأن الله ربهم ، فالأخذ يتضمن خلقهم ، والإشهاد يتضمن هداه إلى الإقرار بأنه ربهم .

ولهذا صار الإقرار بوجود الله تعالى مما لا يحتاج إلى برهان ، فإن

الفطر الإنسانية السليمة تشهد بضرورة فطرتها ، وبديهة فكرتها على خالق حكيم ، قادر عليم ﴿ **أفى الله شك فاطر السماوات والأرض** ﴾ . ﴿ **ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله** ﴾ . [الزخرف : ٨٧] .

ومن غفل عن هذه الفطرة فى حال فإنه يلوذ بها فى حال الضراء ﴿ **فإذا مسكم الضر فى البحر ضل من تدعون إلا إياه** ﴾ . [الإسراء : ٦٧] . ولهذا لم يأت الأمر التكليفى بوجوب معرفة وجود الله تعالى خلافًا لما يقوله أهل الكلام ومن سلك طريقهم ، وإنما جاء الأمر بوجوب عبادته وتوحيده ونفى الشرك كما قال ﷺ : « أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله » . وقال تعالى : ﴿ **فاعلم أنه لا إله إلا الله واستغفر لذنبك** ﴾ . [محمد : ١٩] . وهذا هو محل النزاع بين الرسل وأممهم كما قال تعالى : ﴿ **ولقد بعثنا فى كل أمة رسولاً أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت فمنهم من هدى الله ومنهم من حقت عليه الضلالة** ﴾ . [النحل : ٣٦] .

وهذا هو التوحيد الواجب على كل الخلق ، وهو مبنى على أن الله واحد فى إلهيته لا ندّ له ، وواحد فى ذاته وصفاته وأسمائه لا نظير له ، وواحد فى ملكه وأفعاله لا شريك معه ، فلابد أن يعبد الله وحده لا يشرك معه غيره ، والشرك فى العبادة هو أن يجعل معه إله آخر يتوجه

إليه بنوع من أنواع العبادة ، وهذه أقسام التوحيد الثلاثة ، توحيد العبادة ، وتوحيد الربوبية ، وتوحيد الأسماء والصفات وهذا هو الدين الذى جاءت به الرسل من عند الله موجبين على الخلق أخذه والإيمان به وهو إخلاص التأله والتوجه إلى الله وحده ، وعبادته بأسمائه وصفاته ، وفعل أمره ، واجتناب نهيه .

ثمرة التوحيد :

والتوحيد الخالص هو الذى يرفع نفوس معتقديه ويخلصها من رق الأغيار ويفك إرادتهم من أسر الرؤساء الروحانيين كما يسمون ، وشيوخ الطرق الباطلة والدجل ، والضلال والتعلقات بالأحياء والأموات ، ويخلصها كذلك من إله المادة والتعلق بالطواغيت الماديين وكل مخلوق ، فيطلق عزائمهم من قيود العبودية لغير الله والتعليقات بالأحياء والأموات ، فيكون المؤمن مع الناس حرًّا عزيزًا كريمًا ، ومع الله عبدًا خاضعًا ذليلًا خائفًا ، فهذا الذى يجب على العبد أن يعتنى به أشد الاعتناء ، ويحذر أشد الحذر أن ينحرف عنه ، لأن الانحراف عنه هو الهلاك المحتم والخسران الأكبر والخلود فى جهنم ، مع أن أقسام التوحيد الثلاثة متلازمة ولكن توحيد الربوبية أمر فطرى خلقى : « والرب هو المربى الخالق الرازق الناصر الهادى »[1] .

---

(١) مجموع الفتاوى ج ١٤ ص ١٣ .

« فالرب هو الذى يربى عبده فيعطيه خلقه الذى تتم حياته به ، ثم يهديه إلى جميع مصالحه »[1] . فتوحيد الربوبية هو العلم بأن الله تعالى هو مالك الأشياء كلها ، ومصرفها على ما يريد فالأمر كله راجع إليه تعالى ، من خلق السماوات وما فيهن ، وتصريف شأنها ، وخلق الأرض ومن عليها ، وما فيها من معادن ، وأسرار ، وخلق الرياح وتصريفها ، والسحب وتسخيرها تحمل الماء إلى ما شاء الله تعالى من الأماكن ، فينزله ، وبه تحيا الأرض الميتة ، وإيجاد الأرزاق للحيوانات والدواب والأناسى ، والإحياء والإماتة ، وتنظيم أمور الكون كله من بداية وجوده إلى نهايته ، وإلى ما شاء الله تعالى ، فالجميع ملك لله تعالى وتحت قهره وتصرفه ، حسب إرادته جل وعلا ، وهذا يقر به كل المكلفين من مؤمن وكافر إلا من عاند وكابر منهم ، والمعاند لا تجدى فيه الأدلة ، ولا تزيده المجادلة إلا تماديا فى ضلاله ، وإنما خلق له الحديد الذى فيه البأس الشديد ، قال الله : ﴿ **فإنهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون** ﴾ . [الأنعام : ٣٣] . فبين الله تعالى أن الكفار يعلمون أن ما جاء به الرسول ﷺ حق ،

---

(١) مجموع الفتاوى ، ج ١٤ ، ص ١٣ .

وقال تعالى : ﴿ **إنك لا تسمع الموتى ولا تسمع الصم الدعاء إذا ولوا مدبرين * وما أنت بهادى العمى عن ضلالتهم إن تسمع إلا من يؤمن بآياتنا فهم مسلمون** ﴾ . [النمل : ٨٠ ، ٨١] . وأشهر من عرف فى الماضى فى تجاهله وإنكاره لله تعالى هو فرعون ، وكان مستيقنًا فى قلبه وجود الله تعالى ، وأنه مالك كل شىء كما قال تعالى عن موسى أنه قال له : ﴿ **لقد علمت ما أنزل هؤلاء إلا رب السماوات والأرض بصائر** ﴾ . [الإسراء : ١٠٢] . وقال تعالى مخبرا عنه وعن قومه : ﴿ **وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلمًا وعلوا** ﴾ . [النمل : ١٤] . ولهذا قال منكرًا على موسى : ﴿ **وما رب العالمين** ﴾ . [الشعراء : ٢٣] . فقال له موسى : ﴿ **رب السماوات والأرض وما بينهما إن كنتم موقنين * قال لمن حوله ألا تستمعون * قال ربكم ورب آبائكم الأولين * قال إن رسولكم الذى أرسل إليكم لمجنون * قال رب المشرق والمغرب وما بينهما إن كنتم تعقلون** ﴾ . [الشعراء : ٢٤ - ٢٨] وما زعمه بعضهم أن قول فرعون : ﴿ **وما رب العالمين** ﴾ . استفهام استعلام ، وسؤال عن الماهية ، وأن موسى عجز عن الجواب ، لأن الله تعالى لا ماهية له . هو زعم باطل بل الاستفهام للإنكار كما دلت عليه الآيات الأخر : ﴿ **وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلما وعلوا** ﴾ . وقوله : ﴿ **لقد علمت ما أنزل هؤلاء إلا رب السماوات والأرض بصائر** ﴾ .

وكل من أنكر وجود الله تعالى فلا يخلو من العناد والكبر .

أما غير المعاند فإنه يعترف بأن الله لا منازع له فى الملك والايجاد والقهر والتدبير ولا مشارك له فيه ولا معين ، كما قال تعالى : ﴿ **قل ادعوا الذين زعمتم من دون الله لا يملكون مثقال ذرة فى السماوات ولا فى الأرض وما لهم فيهما من شرك وما له منهم من ظهير * ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له** ﴾ . [سبأ : ٢٢ ، ٢٣] .

والله عز وجل فطر جميع خلقه على معرفة هذا النوع من التوحيد ، فلذلك يلجأون إليه عند النوائب ويفزعون إلى الله كلما ألجأتهم الأزمات ، وألمت بهم الكربات ، وأصابتهم النكبات ، فيخلصون له العبادة عند ذلك ، كما لجأ إليه كبراء الملاحدة وقت الشدة مثل فرعون وذويه ، فقد أخبر الله تعالى أنهم أنكروا وجود الله تعالى ، وقت المجادلة لموسى عليه السلام عند العافية ، فلما أدركهم الغرق ، ذهب عنادهم ، واعترفوا بالحق الذى كانوا ينكرونه عنادا وتكبرا ، قال الله تعالى : ﴿ **وجاوزنا ببنى إسرائيل البحر فأتبعهم فرعون وجنوده بغيًا وعدوًا حتى إذا أدركه الغرق قال آمنت أنه لا إله إلا الذى آمنت به بنوا إسرائيل** ﴾ . [يونس : ٩٠] .

وقال تعالى : ﴿ **قل أرأيتكم إن أتاكم عذاب الله أو أتتكم الساعة أغير الله تدعون إن كنتم صادقين * بل إياه تدعون فيكشف ما**

تدعون إليه إن شاء وتنسون ما تشركون ﴾ . [الأنعام : ٤٠ ، ٤١] . وهذا صريح فى أنهم يعلمون أن الله هو المالك لكل شيء المتصرف فيه بما شاء ، ولهذا صار الإقرار بهذا النوع من التوحيد لا ينفع ولا ينجى من العذاب حتى ينضاف إليه توحيد القصد والنية والإرادة والتوجه ، والمقر بتوحيد التصرف والملك لا يصير به مسلمًا كما دلت على ذلك آيات كثيرة من كتاب الله تعالى ، قال تعالى : ﴿ **ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله** ﴾ . [الزخرف : ٨٧] . وقال تعالى : ﴿ **قل من يرزقكم من السماوات والأرض أمن يملك السمع والأبصار ومن يخرج الحى من الميت ويخرج الميت من الحى ومن يدبر الأمر فسيقولون الله فقل أفلا تتقون** ﴾ . [يونس : ٣١] . وقال تعالى : ﴿ **ولئن سألتهم من أنزل من السماء ماء فأحيا به الأرض بعد موتها ليقولن الله** ﴾ . [العنكبوت : ٦٣] . وآيات القرآن فى هذا كثيرة ، وهى تدل على أن الكفار يؤمنون بهذا القسم من التوحيد ولم يجعلهم ذلك مسلمين ، بل فوق هذا كانوا يخلصون الدعاء لله – الذى هو توحيد العبادة – فى حالة الاضطرار ، ثم يعودون إلى شركهم فى الرخاء ، كما قال الله تعالى عنهم : ﴿ **فإذا ركبوا فى الفلك دعوا الله مخلصين له الدين فلما نجاهم إلى البر إذا هم يشركون** ﴾ [العنكبوت : ٦٥] ، ومعنى قوله تعالى ﴿ **دعوا الله مخلصين له الدين** ﴾ أنهم توجهوا إلى الله وحده بالعبادة ، من الدعاء ،

والذل ، والخضوع ، والرغبة والخوف ، والالتجاء ، لعلمهم أن شركاءهم لا يملكون لهم نفعا ، ولا يستطيعون دفعا عنهم ، وإنما الأمر كله بيد الله تعالى وحده . والذى صيرهم مشركين وأوجب خلودهم فى النار هو زعمهم أن أصنامهم ومن يتوجهون إليهم يشفعون لهم عند الله كما قال الله تعالى : ﴿ **ويعبدون من دون الله ما لا يضرهم ولا ينفعهم ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله قل أتنبئون الله بما لا يعلم فى السماوات ولا فى الأرض سبحانه وتعالى عما يشركون** ﴾ . [يونس : ١٨] . والمعنى أن الله لا يعلم أحدا يشفع عنده لهؤلاء لا من أهل السماء ولا من أهل الأرض ، لأن الشفاعة لله وحده ولا أحد يستطيع أن يشفع عنده حتى يأمره بذلك ويأذن له فيمن يشفع فيه ، وإذا كان الله تعالى لا يعلم شافعا لهم لا فى السماوات ولا فى الأرض فالشافع لا وجود له .

روى الحاكم والدارقطنى وابن مردويه : أن النبى ﷺ لما فتح مكة فر عكرمة بن أبى جهل فركب البحر ، فأصابهم عاصف ، فقال أصحاب السفينة : اخلصوا فإن آلهتكم لا تغنى عنكم هاهنا شيئًا ، فقال عكرمة : والله لئن لم ينجنى فى البحر إلا الإخلاص ، لا ينجينى فى البر غيره اللهم إن لك على عهدًا إن عافيتنى مما أنا فيه أن آتى

محمدا حتى أضع يدي فى يده فلا أجدنه إلا عفوا كريمًا . قال : فنجى فأسلم[1] .

قال قتادة : « الخلق كلهم يقرون لله أنه ربهم ، ثم يشركون بعد ذلك »[2] .

شرك أهل هذا الزمان أعظم من شرك الجاهلية الأولى

المشركون اليوم أعظم شركا ممن بعث فيهم رسول الله ﷺ .

وبهذا يتبين سفاهة عقول مشركى هذا الزمان ، وعظم شركهم ، وأنه لم يصل إليه شرك السابقين . فمشركوا وقتنا هذا يخلصون الدعاء وتزداد إنابتهم ، ويتضاعف ذلهم وخضوعهم لمن يعبدونه من دون الله تعالى ممن يدعون لهم بالولاية ، عندما يقعون فى الشدائد ، والكربات ، ويشركونهم مع الله تعالى حتى فى الربوبية ، ويجعلون لهم التصرف ، والهداية وجلب النفع ، ودفع الضر بخلاف مشركى العرب زمن الرسول ﷺ فما كان أحد منهم يدعى ذلك لآلهته وإنما كانوا يقولون : إنها تشفع لهم عند الله ، وتقربهم إليه تعالى ، كما قال

---

(١) الإصابة ج ٥ ص ٥٣٩ ، وانظر البداية والنهاية ج ٤ ص ٢٩٨ .
(٢) انظر تفسير الطبرى ج ١٣ ص ٧٨ .

تعالى عنهم : ﴿ **والذين اتخذوا من دونه أولياء ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى** ﴾ . [الزمر : ٣] ومع ذلك لم يكن شركهم مستمرا فى كل وقت كهؤلاء المشركين الذين يزعمون أنهم مسلمون ، بل فى وقت الشدائد يخلصون العبادة لله تعالى كما سبق بعض الأدلة على ذلك .

ومن سفاهة هؤلاء أنهم جعلوا الشرك الذى هو أعظم الذنوب أفضل أعمالهم ، ورموا من أنكر عليهم ذلك بالجفاء ، وتنقص الأنبياء والأولياء ، وبأنهم خوارج يكفرون المسلمين . وذلك لأنهم جهلوا معنى العبادة ، ومعنى الإله ، فظنوا أن معنى الإله الرب الخالق المحيى المميت ، القادر على كل شىء ، وظنوا أن الدعاء والاستغاثة ليست عبادة ، وسموا ذلك توسلا وتعلقا ، لأن القرآن صرح أن عبادة غير الله كفر ، واستبعدوا أن تكون هذه الأعمال التى أدركوا عليها آباءهم وقومهم شركا من أعمال المشركين ، فسموا العبادة بغير اسمها لجهلهم دين الإسلام ولغته .

وجهلوا الشرك ، فظنوا أنه السجود للصنم ، والصلاة له ، واعتقاد أنه تدبير الأمور مع الله والتصرف فى الكون ، واعتقدوا أن المشركين السابقين يعتقدون فى آلهتهم هذا المعنى ، فحملوا آيات القرآن فى الشرك على هذا المعنى .

قال صاحب فرقان القرآن فى (ص ١١١) فى تعريفه العبادة : « الإتيان بأقصى غاية الخضوع قلبا باعتقاد ربوبية المخضوع له أو قالبًا مع ذلك الاعتقاد ، فإن انتفى ذلك الاعتقاد لم يكن ما أتى به من الخضوع الظاهرى من العبادة شرعا فى كثير ولا قليل ، مهما كان المأتى به ولو سجودا » .

وقال فى (ص ٨٧) : « توحيد الربوبية وتوحيد الألوهية متلازمان عرفًا وشرعًا ، فالقول بأحدهما قول بالآخر ، والإشراك فى أحدهما إشراك فى الآخر ، فمن اعتقد أنه لا رب ولا خالق إلا الله لم ير مستحقا للعبادة إلا هو ومن اعتقد أنه لا يستحق العبادة غيره فذلك بناء منه على أنه لا رب إلا هو ، ومن أشرك مع الله غيره فى العبادة كان لا محالة قائلا بربوبية هذا الغير هذا مالا يعرف الناس سواه » .

ونقل محمود حسن عن هذا الرجل أنه قال فى مؤلَّف له آخر : « إن من ود الرب تعالى إنزال الغوث والرحمة على من يذكر أحباءه ويناديهم ويستغيث بهم ولو كانوا غائبين أو متوفين » . (ص ٦٥) ، كشف الشبهات .

وقال محمود حسن ربيع فى كتابه كشف الشبهات أيضا : « إن استعانتك بالأولياء الذين تعتقد أن لهم حياة وتصرفا بأقدار الله ،

ليس شركًا ، وإن الشرك لو اعتقدت فيهم ربوبية » (ص ٥٧) . وقال فى (ص ٥٨) : « فمن اتخذ من الأنبياء والأولياء وسيلة إلى الله لجلب نفع أو دفع ضر من الله فهو سائل الله » ... « ومن قال يا رسول الله أريد أن ترد على عينى ، أو ترفع عنا الجدب ، أو يزول عنا المرض ، وهو من المؤمنين كان ذلك دليلًا على أنه يطلب من الله » .

فهذه التعريفات للعبادة والشرك أخذت من الواقع الذى عاش فيه هؤلاء وأحزابهم لا من الشرع الذى جاء به الرسول ﷺ فأراد هؤلاء أن يكون الواقع الذى هم عليه متفقًا مع دين الإسلام ، فجمعوا بين المتضادات ، وقلبوا الحقائق . فجعلوا الشرك توحيدًا ، والتوحيد ضلالًا ، وسلوكًا لطريق الخوارج الذين يكفرون المسلمين ، واستبعدوا أن تكون هذه الأوضاع المنتشرة فى سائر أنحاء البلاد الإسلامية هى التى كان يفعلها المشركون السابقون مع معبوداتهم ، لذلك حاولوا تبرير أفعالهم وجعلها على نهج الإسلام بأحاديث ملفقة أو موضوعة مكذوبة أو حكايات لا قيمة لها فى الشرع الإسلامى ، وأقل ما يقال فى تلك الأحاديث أنها ضعيفة لا يجوز أن يعتمد عليها فى فرع من فروع الشرع ، فكيف فى أصل الأصول – العبادة – التى خلق الجن والإنس من أجلها ، وأرسلت الرسل وأنزلت الكتب لإقامتها وإخلاصها لله .

إن دعاة الوثنية لا يفتؤون يؤلفون الكتب ، ويزوقون الكلام بتحسين الشرك والثناء على أهله ، وتقبيح التوحيد ، وعيب أهله ودعاته ، ورميهم بالعظائم اتباعا لأهوائهم ، وأغراضهم الدنيوية ، فهم يجهدون فى تحريف أدلة الكتاب والسنة حتى تتفق مع ما يقولونه أو يفعلونه ، أو يفعله معظمهم من الرعاع أتباع كل ناعق ، ولهذا قال هؤلاء : « العبادة هي الإتيان بأقصى غاية الخضوع قلبا وقالبا باعتقاد ربوبية المخضوع له ، فإن انتفى ذلك الاعتقاد – يعنى اعتقاد الربوبية – لم يكن المأتى به من العبادة فى كثير ولا قليل ولو كان سجودًا » .

فهل يصدق العاقل أن المشركين – فى عهد النبوة – الذين نزل فيهم القرآن – وهم أكمل عقولا من هؤلاء – يعتقدون أن الأحجار هى ربهم الذى يحيهم ويميتهم ، وينزل عليهم المطر وينبت الزرع والكلاء ، وما يقتاتونه هم وأنعامهم . قال الله تعالى : ﴿ **يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذى خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون الذى جعل لكم الأرض فراشا والسماء بناء وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقا لكم فلا تجعلوا لله أندادا وأنتم تعلمون** ﴾ . أى تعلمون أن الله تعالى هو الفاعل لما ذكر فى الآية من خلقهم وخلق من قبلهم ، وخلق الأرض وجعلها فراشا لهم يفترشونها وينتفعون بها

بما شاءوا وخلق السماء وبناها وأنزل من السماء ماء فأنبت به الثمرات والأرزاق لكم ولأنعامكم فكيف تعبدون معه غيره مع علمكم أنه لا مشارك له فى الخلق والرزق والإحياء والإماتة ، وتصريف أمور الكون .

« وحال مشركى العرب مع أوثانهم معلومة ، وأنهم إنما كانوا يعتقدون حصول البركة منها بتعظيمها ودعائها ، والاستغاثة بها ، والاعتماد عليها فى حصول ما يرجونه منها ويؤملونه ببركتها وشفاعتها ، فالتبرك بالصالحين وبقبورهم هو عين فعل المشركين باللات والعزى ، ومناة وسائر أوثانهم »[1] .

وهو العبادة التى أوجبت لهم الخلود فى النار ، وحرمت عليهم الجنة ، وأخبر الله تعالى أنه لا يغفر ذلك إلا بالتوبة منه وفعل التوحيد الذى هو ضده .

وتسمية هذه الأفعال تبركا ، أو توسلا أو غير ذلك لا يغير من الحقائق شيئا ، فالشرك هو الاتجاه بالعبادة إلى غير الله مهما سمى ذلك ، (وهو نوعان : شرك فى الربوبية وشرك فى الإلهية) .

---

(١) الضياء الشارق ص ١٨٣ .

فالأول : إثبات فاعل مستقل غير الله تعالى كمن يجعل الإنسان مستقلًا بأحداث فعله مهما كانت مرتبته نبيًّا فما دونه ، وكذا من يجعل الكواكب أو الأجسام الطبيعية ، أو العقول كما تقوله الفلاسفة ، أو النفوس كما يقوله عباد القبور ، أو الملائكة أو غير ذلك من المخلوقات ، من جعل شيئًا من ذلك مستقلًا بشيء من الأحداث فهو مشرك فى الربوبية .

« وكل ما سوى الخالق الواجب الوجود بنفسه مفتقر إلى غيره ، فلا يتم به حدوث حادث ، ولا وجود ممكن ، وجمهور العرب لم يكن شركها من هذا النوع ، بل كانت مقرة بأن الله خالق كل شيء وربه ومليكه ، وإنما كان من الشرك فى العبادة » .

والنوع الثانى من الشرك : الشرك فى الإلهية ، وهو أن يجعل مع الله أحدًا من خلقه يتوجه إليه فى عبادته أو محبته أو خوفه أو رجائه ، أو إنابته أو أى نوع من أنواع العبادة ، وضد هذا الشرك التوحيد فى الإلهية ، وهو عبادة الله تعالى وحده لا شريك له ، فإن المشركين المقرين بأن الله رب كل شيء كانوا يتخذون آلهة يستجلبون بعبادتها المنافع ، ويستدفعون بها المضار ، ويتخذونها وسائل تقربهم إلى الله زلفى ، وشفعاء يستشفعون بها إليه ، وهذه الآلهة خلق من خلقه لا يملكون لأحد نفعًا ولا ضرًا إلا بإذنه ، فكل ما يطلب منهم لا يحصل

منه شيء إلا بإذن الله تعالى ، وهو عز وجل لم يأمر بعبادة غيره ، ولم يجعل هؤلاء شفعاء ووسائل تقرب إليه ، قال تعالى : ﴿ **واسأل من أرسلنا من قبلك من رسلنا أجعلنا من دون الرحمن آلهة يعبدون** ﴾ . [الزخرف : ٤٥] . وقال تعالى : ﴿ **وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون** ﴾ . [الأنبياء : ٢٥] . وقال تعالى : ﴿ **ويعبدون من دون الله مالا يضرهم ولا ينفعهم ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله قل أتنبئون الله بما لا يعلم فى السماوات ولا فى الأرض سبحانه وتعالى عما يشركون** ﴾ . [يونس : ١٨] . (والمعنى أن الله تعالى لا يعلم أن أحدا يشفع عنده لهؤلاء لا فى السماوات ولا فى الأرض فلا وجود لذلك) .

فبين الله تعالى فى هذه الآيات وغيرها أنه لم يشرع عبادة غيره ، ولا أذن فى ذلك ، بل أخبر أنه لو كان فى السماوات أو الأرض آلهة إلا الله لفسدتا ، فإنه كما يمتنع أن يكون غيره ربا فاعلًا متصرفا ، يمتنع أن يكون إلها معبودا[1] .

« والإنسان بل وجميع الكائنات عباد لله تعالى ، فقراء إليه مماليك

---

(١) درأ تعارض العقل ج ٧ ص ٣٩١ بتصرف .

له ، وهو ربهم المتصرف فيهم ، وهو إلههم لا إله إلا هو ، فالمخلوق ليس له من نفسه شيء أصلًا ، بل نفسه وصفاته وأفعاله ، وما ينتفع به أو يستحقه إنما هو من خلق الله تعالى . هو الذى أوجده ومَنَّ به ، وفقر المخلوق وعبوديته أمر لازم له ، لا ينفك عنه بحال ، ولا وجود له بدون ربه والحاجة إليه ضرورية لكل المخلوقات لأنها ملك لخالقها وموجدها إذ لا قيام لها بدونه ، ولكن الناس أو أكثرهم تعزب قلوبهم عن شهود هذه الحاجة الملحة وهذا الفقر الاضطرارى »[1] .

وتشهد توحيد الربوبية العام ، الذى تشترك فى شهوده سائر المخلوقات ، وهو أنه لا خالق إلا الله تعالى ، فلا يستقل شيء سواه بإحداث أمر من الأمور ، بل ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن ، فكل ما سواه إذا كان سببًا فلابد له من شريك معاون ، وضد معوق ، فإذا طلب العبد من غير الله إحداث أمر من الأمور ، فقد طلب منه مالا يستقل به ، ولا يقدر عليه وحده ، حتى أفعال العبد الاختيارية لا يستطيع فعلها إلا بإعانة الله عليها بأن يجعله فاعلًا بما يخلقه فيه من الإرادة الجازمة ، والقدرة على ذلك الفعل

فمشيئة الله وحده هى المستلزمة لكل ما يريد ، فما شاء كان ،

(١) انظر مجموع الفتاوى ج ١٤ ص ٣١ .

ومالم يشأ لم يكن وما سواه لا تستلزم إرادته شيئًا ، بل ما أراده لا يكون إلا بأمور خارجة عن مقدوره ، إن لم يعنه الرب بها لم يحصل مراده ، ونفس إرادته لا تحصل إلا بمشيئة الله تعالى كما قال تعالى : ﴿ **وما تشاءون إلا أن يشاء الله رب العالمين** ﴾ .

وبهذا يتبين أن السائل للمخلوق يسأله مالا يستقل بملكه ، هذا إذا كان المسؤول بمقدوره ظاهرًا ، فكيف إذا سأله مالا يقدر عليه أصلا مثل الشفاعة عند الله لأنها لا تكون إلا بإذنه ، ومثل هداية القلوب ، وشفاء الأمراض ونحو ذلك .

والراجي لمخلوق ، طالب بقلبه لما يريده من ذلك المخلوق ، والمطلوب منه عاجز عن المطلوب ، ولهذا صار ذلك من الشرك الذى لا يغفره الله إلا بالتوبة منه .

ومن نعم الله على عبده أن يمنع مطلوبه بالشرك ، ليصرف قلبه إلى توحيد الله تعالى فإن وحّده توحيد الإلهية حصلت له سعادة الدنيا والآخرة ، وإن كان ممن قال الله فيهم : ﴿ **وإذا مس الإنسان الضر دعانا لجنبه أو قاعدًا أو قائمًا فلما كشفنا عنه ضره مرَّ كأن لم يدعنا إلى ضر مسه** ﴾ . [يونس : ١٢] . كان ما حصل له من توحيد حجة عليه ، كما احتج سبحانه على أمثاله من المشركين ، الذين يقرون بأنه خالق كل شيء ثم يشركون غيره معه فى العبادة ، ولا يخلصونها

له ، قال تعالى : ﴿ **قل لمن الأرض ومن فيها إن كنتم تعلمون * سيقولون لله قل أفلا تذكرون * قل من رب السماوات السبع ورب العرش العظيم * سيقولون لله قل أفلا تتقون * قل من بيده ملكوت كل شيء وهو يجير ولا يجار عليه إن كنتم تعلمون * سيقولون لله قل فأنى تسحرون** ﴾[1] [المؤمنون : ٨٤ - ٨٩] .

وهذا كثير فى القرآن ، وهو يدل على ما تقدم من أن الإقرار بتوحيد الربوبية ، وبوجود الله تعالى أمر فطرى مسلم به عند جميع الخلق ، إلا من أخذته العزة بالإثم فكابر عقله ، وخالف فطرته ، وعاند الحق ، ولهذا لم تكن رسالة الرسل فى دعوة الناس إلى الإيمان بوجود الله تعالى ، والإقرار بربوبيته ، إذ كان هذا مستقرًا فى القلوب .

ولذلك جعل الله تعالى هذا دليلًا وحجة على وجوب التزام القسم الثانى من التوحيد ، الذى هو توحيد العبادة .

فالإقرار بالخالق ، وكماله يكون فطريًا ضروريًا فى حق من سلمت فطرته من الانحراف ، ومع ذلك فقد قامت عليه الأدلة الكثيرة ، لأنه قد يحتاج إليها كثير من الناس لفساد فطرهم وتغيرها ولأحوال تعرض لهم ، وإن كانت مسألة الإقرار بوجود الله - كما قلنا - ليست من

---

(١) انظر مجموع الفتاوى ج ١٠ ص ٣٣١ .

المسائل التى تحتاج إلى برهان ، « فإن الفطر الإنسانية السليمة تشهد بضرورة فطرتها وبديهة فكرتها على خالق حكيم ، قادر عليم » .
﴿ **أفى الله شك** ﴾ . ﴿ **ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله** ﴾ ومن غفل عن هذه الفطرة فى حال السراء ، فإنه يلوذ بها فى حال الضراء .
﴿ **فإذا مسكم الضر فى البحر ضل من تدعون إلا إياه** ﴾ .

أنواع الأدلة الدالة على الله تعالى

فالأدلة على الله تعالى كثيرة : منها ما شهدت به الفطر السليمة من احتياج المخلوق إلى مدبر هو منتهى طلبه ، يرغب إليه ، ولا يرغب عنه ، ويستغنى به ، ولا يستغنى عنه ، ويفزع إليه فى الشدائد ، واحتياج الإنسان فى نفسه أوضح من احتياج الممكن الخارجى إلى موجد ، والحادث إلى محدث ، ولهذا ذكر الله تعالى هذا المعنى محتجًّا به على وجوب عبادته كما قال تعالى : ﴿ **أمَّن يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء ويجعلكم خلفاء الأرض أءِله مع الله قليلا ما تذكرون** ﴾ . [النمل : ٦٢] . ومن رجع إلى نفسه أدنى رجوع عرف احتياجه إلى ربه فى تكوينه ، وبقائه ، وتقلبه فى أحواله . وكذلك النظر فى آيات الآفاق ، والملكوت تدل دلالة واضحة على الله تعالى ، ولكن المعارف التى تحصل من تعريفات أحوال الاضطرار أشد رسوخًا فى القلب من المعارف التى هى نتائج الأفكار فى حالة

الاختيار[1] .

وكذلك النظر فى مخلوقات الله تعالى ، وما فيها من العجائب ، واتقان الصنعة ، وباهر الحكمة ، وتقلب الليل والنهار ، ودوران الشمس والقمر والنجوم ، وما يتجدد فى طلوعها وغروبها ، ودوران الأفلاك ، وهبوب الرياح ، والسحاب المسخر بين السماء والأرض يحمل الماء إلى حيث يشاء الله ، وعوالم المخلوقات مما يطول وصفه .

ومن ذلك خلق الإنسان من نطفة مستوية الأجزاء ، متنقلة الأطوار ، من نطفة إلى علقة ، ومن علقة إلى مضغة ، ثم خلق منها لحما وعظاما وعصبا ، وبصرا وعقلا وإدراكا ، وما يشم ، وما يطعم ، وما يمشى على بطنه وما يمشى على أربع وما يمشى على رجلين ، وذكر وأنثى ، وهل يمكن أن يكون المداد بنفسه كتابًا معربًا مرتب المعانى والمواضيع منسق الكتابة والحروف بطبيعة المداد من غير كاتب عالم . ﴿ **قتل الإنسان ما أكفره** ﴾ ... الآيات .

ومن ذلك المعجزات التى جاءت بها الأنبياء وهى من أوضح الدلائل على الله تعالى مثل إحياء الموتى ، وجعل العصا التى هى عود

---

(١) انظر نهاية الإقدام ص ١٢٤ .

يابس مقطوع من شجرة حية تلتهم ما أمامها ، وفلق البحر بضربه بالعصا ، وقلب طبيعة النار ومنعها من الإحراق ، وإنباع الماء من أصابع الرسول ﷺ حتى يتوضأ منه الجمع الكثير ، وتكثير الطعام القليل حتى يتزود منه الجيش بأكمله وغير ذلك كثير جدا .

ولما كان الطريق إلى الحق هو السمع والعقل ، وهما متلازمان ، كان من سلك الطريق العقلى دله على الطريق السمعى ، وهو صدق الرسل ، ومن سلك الطريق السمعى بين الأدلة العقلية ، كما بين ذلك القرآن .

وكان الشقى المعذب من لم يسلك لا هذا ولا هذا كما قال أهل النار : ﴿ **لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا فى أصحاب السعير** ﴾ . [الملك : ١٠] . قال الله تعالى : ﴿ **أفلم يسيروا فى الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها أو آذان يسمعون بها فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور** ﴾ . [الحج : ٤٦] .

والإلحاد يعرض لكثير من الناس ، ويتبناه بعضهم إما ظاهرًا دون باطن كحال فرعون ونحوه من المجرمين ، وإما باطنًا وظاهرًا كحال ملاحدة اليوم .

والإلحاد لا يمنع أن تكون معرفة الله مستقرة فى الفطرة ، ثابتة بالضرورة ، لأن إنكار وجود الله تعالى حال تعرض لكثير من الناس

عمدًا أو خطأً واغترارا ، مع أن كثيرًا من الناس قد ينازع فى كثير من القضايا البديهية ، والمعارف الفطرية ، من الحسيات والحسابيات ، والإلهيات ، ومن تأمل ما يذكره أصحاب المقالات فى العلوم المختلفة رأى عجائب وغرائب ، فمن الطرائف فى هذا ما ذكر أن رجلًا صنف كتابًا فى نفى العلوم فمات له ولد قد قارب الحلم فقال : أسفت لموت ولدى قبل أن يقرأ كتابى ، فقيل له : وما يدريك أنه كان لك ولد ، وأنه مات ، وأنه لم يقرأ كتابك ، وما يدريك أنك موجود وأنك صنفت كتابًا فلم يدر ما يقول .

وبنو آدم لا ينضبط ما يخطر لهم من الآراء والإرادات ، فإنهم جنس عظيم التفاوت ، فليس فى المخلوقات أعظم تفاوتًا وتفاضلًا منهم ، فخيارهم خير المخلوقات أو من خيرهم ، وشرارهم أشر المخلوقات كما قال تعالى : ﴿ **ولقد ذرأنا لجهنم كثيرًا من الجن والإنس لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون** ﴾ . [الأعراف : ١٧٩] .

ولكن الحق عزيز ، ومع عزته كل يدعيه ودعواهم الحق تحجبهم عن مراجعة الحق ، إن على الباطل ظلمة ، وإن الحق نور ، ولا يبصر

نور الحق إلا من حشى قلبه بالنور ﴿ **ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور** ﴾[1] .

القسم الثانى من التوحيد

توحيد الأسماء والصفات ، وهذا القسم شبيه بالذى قبله – توحيد الربوبية – من حيث ثبوته فى الفطر ، وكثرة الأدلة عليه ، كثرة عظيمة ، وكون الأمم السالفة لم تنكره إلا من شذ وندر ، وقد اختلف الصحابة ومن بعدهم فى كثير من آيات الأحكام ، ولم يختلفوا فى شىء من آيات الصفات وأخبارها ، بل اتفقوا على إقرارها على ظاهرها مع فهمهم معانيها ، وإثبات حقائقها ، وذلك لأنها أعظم عناية ، وأوضح بيانا من آيات الأحكام ، ومن يقرأ كتاب الله تعالى ، ويستعرض سنة رسوله ﷺ يرى مدى العناية بهذا القسم ، وإثباته بطرق مختلفة ، وكثرة النصوص فيه فما سر ذلك ؟ وما مغزاه ؟ ذلك لأنه منبع الإيمان والمعرفة بالله على بصيرة وهدى ، وهو مصدر التوحيد الكامل فأكمل الناس توحيدًا أعلمهم بهذا القسم ، وأبصرهم بمعانيه وفقهه ، والفقه فيه هو الفقه الأكبر .

---

(١) انظر صون المنطق ص ١٩٨ ج ١ .

إن معرفة الله تعالى على التفصيل لا يمكن الوصول إليها إلا عن طريق الوحى الذى جعله الله لعباده روحًا ونورًا وهدى ، والله تعالى أعلم بنفسه وبغيره من خلقه ورسوله ﷺ أعلم الخلق بالله ، وما يجب له ، وما يمتنع عليه ، وما ينزه منه ، وما وصف الله به نفسه وجب قبوله والإيمان به وأنه الحق ، وكذا ما قاله الرسول ﷺ وهو أفصح الخلق وأقدرهم على البيان ، وأنصح الخلق لأمته ، وقد بين للناس ما نزل إليه من ربه ، وأعظم ذلك معرفة الله تعالى التى بها هداية القلوب ، فقد بين ﷺ أوصاف الله تعالى التى تعرف بها إلى عباده ، وأمرهم بدعوته بها ، إذ هى الطريق إلى معرفة الله تعالى وعبادته .

فكل اسم من أسمائه الحسنى له تعبد يختص به علمًا وحالًا ، وأكمل الناس عبودية لله المتعبد بجميع الأسماء الحسنى والصفات العليا التى يعرفها الخلق ، فلا تمنعه عبودية اسم عن عبودية اسم آخر ، وهو جل وعلا يحب مقتضى أسمائه وصفاته ، فلمحبته التوبة والمغفرة والعفو ، خلق من يتوب عليه ، ويغفر له ، ويعفو عنه كما جاء فى الحديث : « **لو لم تذنبوا لذهب الله بكم وجاء بقوم يذنبون فيستغفرون فيغفر الله لهم** »[1] .

---

(١) درأ تعارض العقل ج ٧ ص ٣٩١ .

وإذا كان الإيمان بأسماء الله تعالى وصفاته فرضا على العبد ، لأنه داخل فى الإيمان بالله تعالى ، ومعلوم عجز العقول عن الوصول إلى معرفة ذلك بدون هداية الوحى لأن ذلك من الغيب ، فلابد أن تعتصم من الزلل والاضطراب بعاصم وليس ذلك إلا كتاب الله وسنة رسوله ﷺ ففى ذلك فقط تحديد المسلك الصحيح الذى يهتدى المرء بارتياده ، كما فيه أيضا التحذير من السبل الأخرى التى إذا سلكها الإنسان وترك فيها وشأنه لا يمكن أن يجنى إلا الحيرة والاضطراب ، كما وقع لكثير من أذكياء علماء الكلام الذين فتحوا المجال لعقولهم تجول فى كل طريق وفى النهاية أصبح أحدهم يتمنى أن يموت على عقيدة العجائز .

إن الكون مفتوح أما العقل فعليه أن يعبر وينظر ما يريد ، أما أن يحاول ارتياد الغيب بلا عاصم وبدون دليل من الوحى الإلهى ، فمن الحق أن يقال له حينئذ « ليس هذا بعشّك فادرجى » ولكن عليه أن يقبل من الغيوب ماجاء به الكتاب والسنة ، ومن ذلك ما وصف الله تعالى به نفسه أو وصفه الرسول به بدون تأويل أو تبديل بل يؤخذ على ظاهره ، وذلك أن الوحى أنزل للهدى والبيان ، وهو كما قال الله تعالى : ﴿ **نور ورحمة وبصائر للناس** ﴾ . فمن غير المعقول أن الله تعالى يصف القرآن بأنه هدى للناس ، ونور ، وبيان ،

ورحمة ثم يخاطب الخلق فيه بألفاظ لا يقصد منها ما تدل عليه ظاهرًا ، بل يكون ظاهرها التشبيه والكفر كما أنه محال أن تكون آياته رموزًا وألغازًا أشير بها إلى معان باطنة لا تفهم إلا بصعوبة بالغة ولا يصل إليها إلا النادر من الأذكياء كما يقوله الذين لم يؤمنوا بالله ورسله . قال تعالى : ﴿ **وما قدروا الله حق قدره والأرض جميعا قبضته يوم القيامة والسماوات مطويات بيمينه سبحانه وتعالى عما يشركون** ﴾ . [الزمر : ٦٩] . وقال تعالى : ﴿ **قال يا إبليس ما منعك أن تسجد لما خلقت بيدى أستكبرت أم كنت من العالين** ﴾ . [سورة ص : ٧٥] . وقال تعالى : ﴿ **هل ينظرون إلا أن تأتيهم الملائكة أو يأتى ربك أو يأتى بعض آيات ربك** ﴾ . [الأنعام : ١٥٨] .

فهذا التقسيم والتنويع يبطل تأويل إتيان الرب تعالى بإتيان أمره أو الملائكة كما يقوله أهل التحريف ، ومثل هذه الآية قوله تعالى : ﴿ **وجاء ربك والملك صفًا صفًا** ﴾ . وقال تعالى : ﴿ **قال لا تخافا إننى معكما أسمع وأرى** ﴾ . [طه : ٤٦] .

والآيات فى ذكر أوصاف الله تعالى كثيرة جدًا ، والإيمان بها على ظاهرها من غير تحريف ولا تأويل ، ولا تشبيه ولا تمثيل هو سبيل المؤمنين – صحابة رسول الله ﷺ ومن تبعهم بإحسان ، وقد قال تعالى : ﴿ **ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى ويتبع غير**

سبيل المؤمنين نوله ما تولى ونصله جهنم وساءت مصيرا ﴾ .
[النساء : ١١٥] . فمن سبيلهم الإيمان بصفات الله تعالى وأسمائه التى وصف بها نفسه ، وسمى به نفسه فى كتابه ، أو على لسان رسوله ، من غير زيادة عليها ولا نقص منها ولا تجاوز لها ، ولا تأويل لها بما يخالف ظاهرها ، ولا تشبيه لها بصفات المخلوقين ، لأنهم تيقنوا أن المتكلم بها صادق ، وأراد منهم اعتقاد معانيها فصدقوه ، وسكتوا عما لم يعلموه من حقيقة معناها ، وأخذ ذلك الآخر عن الأول ، ووصى بعضهم بعضًا بحسن الاتباع ، والوقوف حيث وقف أولهم ، وحذروا من التجاوز لمذهبهم ، والعدول عن طريقتهم .

وبرهان ذلك أنهم نقلوا إلينا القرآن العظيم ، وأخبار الرسول ﷺ نقل مصدق لها مؤمن بها ، قابل لها ، غير مرتاب فيها ، ولا شاك فى صدق قائلها ولم يفسروا ما يتعلق بالصفات منها ، ولا تأولوه ، ولا شبهوه بصفات المخلوقين . إذ لو فعلوا شيئًا من ذلك لنقل عنهم ، ولا يجوز أن يكتم بالكلية إذ لا يجوز التواطؤ على الكتمان لما يحتاج نقله ومعرفته .

القسم الثانى

توحيد التوجه والقصد بالنفس واللسان والقلب رغبة ورهبة بالعبادة لله وحده والخلوص من الشرك جليله ودقيقه ، فإذا نوى المرء

بما يأتى وما يترك التقرب إلى الله تعالى وطلب ما لديه صار موحدًا له وبصرفه شيئًا من ذلك لغير الله يكون مشركًا علم أنه شرك أو لم يعلم إذ أساس العبادة سواء كانت لله أو لغيره هو توجه القلب بالذل والخضوع التام المستولى على الخاضع من القوى الغيبية والأمور الخفية التى يرهبها ممن يذل له ، أو يطمع فيها على غير الأسباب التى يجرى عليها نظام الكون على الدوام سواء كانت تلك القوى الخفية وهمية أو حقيقية ، هذا هو باعث العبادة فى الغالب ، والذى يحمل العابد عليها بالتوجه إلى معبوده بالدعاء وما يتبعه من الأعمال والأقوال ، فرع عن وجودها ودليل على عبودية من صدرت منه ، لأن التوجه إليه شاهد على اتخاذه إلها ، والأعمال هى شواهد لله ولعباده على الخلق ، ودليل على صدق ما ادعى أو كذبه مع أن الله لا يخفى عليه خافية .

وما كان من هذا الذل والخضوع خال عن المحبة والتعظيم ، وبدافع الأمور الظاهرة التى تجرى عليها السنن الكونية والأسباب التى ربطها الله بمسبباتها ونتائجها مما يدخل تحت مقدور من يخافه العباد ، أو من يرجونه من الخلق فهو من تتمة العبادة غير أن ما كان جارٍ منها على الطبائع لا يقدح فى إخلاص من داخله شىء منه ، لأن الأنبياء فمن دونهم كانوا يخافون من عدوهم ، ومن يقدر على أذاهم ،

ويرجون من يملك أن ينفعهم ويعاونهم من أتباعهم وغيرهم ، مع اعتمادهم على الله فى حصول مطلوبهم وهذه من الأسباب التى جعلها الله مقتضية وجود مسبباتها .

ولم يسجل التاريخ نبأ كائن ينكر وجود إله علىّ قدير ، حتى العقائد الوثنية التى كانت ومازالت تؤمن بآلهة متعددة ، حتى هذه تدين بالتقديس لإله واحد من آلهتها وتؤمن بأنه فوق الكل عزة وعظمة وقدرة ، وهو مالك الملك رب السماوات والأرض وأنه رب الأرباب ، ومالك كل شيء إلّا أنهم أشركوا بعض عباده معه فى الدعاء والتوجه إليهم بصفتهم مقربين إليه ملكهم ما يطلب منهم بزعمهم ، ولكن وقف فى وجه دعوة الرسل أمم كانت تعبد مع الله آلهة أخرى .

ولهذا لم تكن رسالة الرسل فى دعوة الناس إلى الإيمان بوجود الله أو ربوبيته ، إذ كان هذا مستقرًّا فى القلوب وإنما كانت دعوة الرسل إلى توحيد الله فى إلهيته بأن يعبد وحده لا شريك له والتخلى عما اتخذوه معبودًا من دون الله تعالى ، وأولياء يلجأون إليهم وشفعاء يعبدونهم بالحب والدعاء والخوف والرهبة والرجاء قال الله تعالى : ﴿ **ولقد بعثنا فى كل أمة رسولًا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت** ﴾ . والطاغوت كل من أضلك عن سبيل الله ، أو صرفك عن طريق الحق ، أو احتكمت إليه فى دينك بحكم يحكم فيه بالهوى

أو عبدته من دون الله ، قال تعالى : ﴿ **وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحى إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون** ﴾ لم يقل لا رب سواى لأن الناس جميعًا يوحدون الله فى ربوبيته ولم يقل إنى إله لأنهم جميعًا يؤمنون بذلك ولكنه قال : ﴿ **لا إله إلا أنا** ﴾ وأمر بعد ذلك بعبادته ليوحده الناس فى الألوهية ويعبدوه وحده وهذه رسالة الرسل وهى توحيد الله فى إلهيته بأن يعبدوه وحده لا شريك له ، لما نادى الله كليمه من الطور ، وقد تجلى له النور ، كان أول ما أمر به موسى أن يسمعه ويطيعه ، ويبلغه ﴿ **إننى أنا الله لا إله إلّا أنا فاعبدنى وأقم الصلاة لذكرى** ﴾ . [سورة طه : ١٤] . وملاك ذلك أن لا يعبد إلا الله ، وأن لا يعبده إلا بما شرع ، فمن ابتغى بعمل غير وجه الله ، فهو مشرك ، ومن عَبَدَ الله وحده ، بما لم يأذن به الله ولم يشرعه فهو مبتدع ضال ، ولا يكون الدين لله خالصا إلا إذا كان كل ما نعمله ونقوله هو لله خالصا وسواء كان من شئون الدين أو من شئون الحياة ما دمنا نرجو الثواب من الله تعالى عليه ، قال ﷺ يقول الله عز وجل : « من عمل عملًا أشرك معى فيه غيرى تركته وشركه »[1] فذكر العمل مطلقًا غير مقيد بكونه عمل دينى أو

(١) رواه مسلم فى صحيحه . انظر مسلم بشرح النووى جـ ١٨ ص ١١٥ ، وابن ماجه فى سننه جـ ٢ ص ١٤٠٥ .

دنيوى ، ليكون وجود العبد كله فى الحياة والاتجاه وغيره لله وحده ، وقال ﷺ : « ألا أخبركم بما هو أخوف عليكم من المسيح الدجال قالوا بلى يا رسول الله ؟. قال : الشرك الخفى يقوم الرجل فيزين صلاته لما يرى من نظر رجل »[1] فمجرد تزيين الصلاة لأجل ملاحظة عيون الناس بالإعجاب شرك بالله ، فتوحيد الله لا يتحقق إلا أن يكون ظاهر الإنسان وباطنه سره وعلانيته عمله وقوله دينه ودنياه كله لله وحده ، فيجب أن يكون هوى قلبك وباعث عملك وغاية جهادك فى الحياة لله وحده ، وقد يكفر الإنسان بمعبود فى لسانه وقلبه مستكين له ومملوك عليه ، وتشهد عليه أعماله بأنه عبد الدينار وعبد الدرهم ، أو عبد الشيطان ، ألم تر إلى قول إبراهيم عليه السلام : ﴿ **يا أبت لا تعبد الشيطان** ﴾ وما كان آزر يسمى معبوده شيطانًا ولا يؤمن بأنه شيطان ، ولكن الذى يصده عن عبادة الله هو الشيطان ، أو ولى الشيطان ، فهو عونه وأخوه قال الله تعالى : ﴿ **ألم أعهد إليكم يا بنى آدم أن لا تعبدوا الشيطان** ... ﴾ [يس : ٦٠] .

وأنواع العبادة كثيرة متعددة : « وهى اسم لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة »[2] وتكون فى

---

(١) أحمد . انظر المسند جـ ٣ ص ٣٠ ، وسنده صحيح .

(٢) قاله شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله . انظر الرسالة المعروفة بالعبودية فاتحتها .

القلب كالإخلاص فى الأعمال ، واليقين بالأمور الغيبية ، والخوف والرجاء ، والتوبة ، والندم على ما صدر من سيىء الأعمال .

ومنها ما يدفعه قلب العبد على اللسان من الدعاء ، والنداء والاستغاثة ممن يرجو ويتوكل عليه لقضاء حاجة أو تفريج كربة .

ومنها ما يكون باللسان والقلب والجوارح ، كالمحبة ، فمن أشرك فى الحب الذى لا يصلح إلا لله ، مع الله غيره ، فقد جانب التوحيد ، وأتى بما يضاده ، قال تعالى : ﴿ **ومن الناس من يتخذ من دون الله أندادًا يحبونهم كحب الله** ﴾ ، [سورة البقرة : ١٦٥] .

ومنها الصلاة والركوع والسجود والذبح قال تعالى : ﴿ **فصل لربك وانحر** ﴾ .[سورة الكوثر : ٢] . وقال جل وعلا : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا اركعوا واسجدوا واعبدوا ربكم** ﴾ ، [سورة الحج : ٧٧] .

ومنها الطواف ، فلا يطاف إلا فى بيت الله ، ولله وحده ، قال تعالى : ﴿ **وليطوفوا بالبيت العتيق** ﴾ ، [سورة الحج : ٢٩] ، وأنواعها كثيرة يصعب حصرها جدا .

أقسام الشرك

وضد **التوحيد الشرك وهو أقسام ثلاثة** : شرك أكبر بأن يجعل شيئًا من العبادة لله ولغيره وهذا فاعله إذا مات ولم يتب منه يخلد

فى النار ، كما قال تعالى : ﴿ **إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء** ﴾ . [سورة النساء : ٤٨] .

والثانى : شرك أصغر مثل يسير الرياء وقوله لرجل ما شاء الله وشئت والحلف بغير الله وما شابه ذلك ، ولو كان المحلوف به خاتم النبيين ، وأشرفهم ﷺ .

الثالث : الشرك الخفى وهذا قد يكون أكبر وقد يكون أصغر ، حسب الباعث عليه والاسترسال معه .

ومن أنواع الشرك أن يتوجه الإنسان بالدعاء إلى الله تارة وإلى غيره أخرى سواء قصد ذلك على سبيل الوساطة ، أو طلب منه — أى من غير الله — غرضه ، بالنداء والاستغاثة واللجاء إليه والتمسكن له ، فمن فعل ذلك فقد جعل لله عديلا ، ومساويا ، سواء سمى ذلك توسلا أو شفاعة ، وسواء كان المتوسل به نبيا ، أو وليا ، أو عدوا طريدا ، فكل ذلك شرك ينافى التوحيد .

ومن الأعمال القبيحة سؤال الله بجاه مخلوق ، أو بحقه وعمله لأن من سأل الله بذلك فقد اعتقد أنه يؤثر على الله ، كالشفاعة على الرؤساء ، ولهذا لا يتوسلون ويسألون الله إلّا بجاه من يعتقدون له الجاه العريض ، والمكانة الحاملة لله على أن يعطيهم حاجتهم بزعمهم والجاه والمنزلة أصبحت فى عرف الناس ولغتهم هى النفوذ والقوة

المؤثرة ، على من يتوجه إليه لتحصيل خيره ، أو دفع شره ، فعلى هذا ما يسميه توسلا وزورا معيدوا الوثنية ، من منتحلى الإسلام ، وهو على لغة القرآن والعرب ، العبادة بعينها ، فإذًا التوسل الذى يعنونه هو الشرك الأعظم وهو يشمل عندهم.

أولًا : الطواف عند قبور من يقدسونهم ، وتقبيلها وأخذ ترابها للاستشفاء به والتبرك بها ، وذبح الذبائح لهم ، لأنهم يرجون بذلك أن يعطوهم ، أضعاف ما قدموا لهم .

الثاني : ما ينفقونه فى هذا السبيل ، من الحرث والأنعام ، طمعا أن يبارك لهم بدعواتهم ، وأسرارهم ونفحاتهم الإلهية فى أموالهم وأنفسهم وذرياتهم .

الثالث : عمارتهم قبورهم ، بالبناء العالى ، والقباب المزخرفة ، والستائر الفاخرة ، والإضاءة عليها وبذل المال فى هذا السبيل ، وتحمل مشقات السفر إليها .

الرابع : الحلف بهم ، والخوف منهم ، والتخويف بهم ، وتحذير بعضهم بعضا من عقابهم ، لاعتقادهم أنهم يقدرون على ذلك ، كما يعتقدون فيهم النفع لمن يحبهم ، ويفى لهم بالنذور ، ويزور أوثانهم .

الخامس : توجههم إليهم بالدعاء والنداء والاستغاثة والاستعانة بهم إذا نزل بهم ضر ، أومسهم كرب .

السادس : سؤالهم الله بحقهم ، وتوسلهم إليه بجاههم ومنزلتهم ، وماهم عنده من الدرجات .

السابع : تعبدهم وصلاتهم عند قبورهم وعكوفهم عندها رجاء نفحات بركاتهم وتفضيل البقاع التى يوجدون فيها ، اعتقادا منهم أن الدعاء عندهم مقبول ، ومستجاب لما لهم من القداسة . وهذاكله شرك بالله وخروج عن دينه الذى جاءت به رسل الله كلهم .

الثامن : السفر إلى مشاهدهم ، قصدًا للعبادة عندهم ، لاعتقادهم أنها فى تلك الأماكن أفضل منها فى المساجد ،وهذا كله مناقضة لشرع الله ، الذى جاء به خاتم الرسل صلوات الله وسلامه عليه ، وإعادة لدين الوثنية ، ومن المؤسف أن تصدر مثل هذه الأفعال من بعض خريجي الجامعات والمتصدرين للفتوى والتوجيه

ومما يتعلق به المشركون قديما وحديثا الشفاعة :

الشفاعة : لقد كانت الشفاعة فى قديم الزمان وحديثه طريقا إلى الشرك ، ثم أصبحت تطلق على الشرك بعينه كما قال الله تعالى : **﴿ ويعبدون من دون الله مالا يضرهم ومالا ينفعهم ويقولون هؤلاء**

شفعاؤنا عند الله ﴾ ، والشفاعة مأخوذة من الشفع ، وهى ضم طلب الشافع إلى طلب المشفوع له ، وما عبد المشركون فى كل عصر صالحيهم إلا بحجة أنهم يشفعون لهم عند الله ، وعملهم لهذه الغاية صادر بلاريب عن اعتقادهم فى أوليائهم أنهم يملكون الشفاعة ، ولو كان عندهم عقل لأخلصوا العبادة لله وحده ، لأن الشفاعة وغيرها ملكه لايشاركه فى ذلك أحد ، وهو الرحمن الرحيم الغفور الودود ، وهؤلاء يدعون العبيد الأموات ، أن يمنحوهم ما يملكه الله وحده ، ولا يسألون مالك الملك بدل إذلالهم أنفسهم لأصنامهم وطواغيتهم ، وإذا كانوا لا يؤمنون بالقرآن ، أيجوز فى عقل الإنسان يطلب الشىء ممن لا يملكه ، إن عقل المشركين هو الذى أباح للعبيد أن يسألوا الصخرة الصماء رحيق الجنة والميت إمداد البركات ، فى الحياة ، والعاجز الضعيف الفقير أن يهب لهم القدرة ، والقوة والغنى ، وزين الشيطان لهم ، أن رحمة القبور ، أقرب إليهم من رحمة الخلاق الرحيم ، فاستجاروا بمن لايجير نفسه ، من دود الأرض ، واسترحموا من لايملك لنفسه نفعا ولاضرا .

إن الشفاعة ملك خاص لله وحده ، فمن الشرك القول : « نسألك الشفاعة يارسول الله » لأن السائل ذلك يسأله مايملكه الله وحده ، فيجب أن يقول : اللهم اجعلنا ممن يستحق شفاعة نبيك .

بيد أن الشيطان زين لعُبَّاده أنه لا فرق بين الأمرين ، وأن التفريق بينهما تزمت وتنطع ، فى الدين قال الله تعالى : ﴿ **قل ادعوا الذين زعمتم من دون الله لا يملكون مثقال ذرة فى السماوات ولا فى الأرض وما لهم فيهما من شرك وماله منهم من ظهير ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له** ﴾ . نفى الله عمن سواه كل ما يتعلق به المشركون ، نفى أن يكون لغيره ملك أو قسط من الملك ، أو يكون عونًا لله ، فلم يبق إلا الشفاعة ، فبين أنها لا تنفع إلا لمن أذن له الرب كما قال : ﴿ **ولا يشفعون إلا لمن ارتضى** ﴾ فالشفاعة التى يظنها المشركون ، منفية ﴿ **من ذا الذى يشفع عنده إلا بإذنه** ﴾ . وأخبر النبى ﷺ أنه لا يبدأ بالشفاعة أولا ، بل يسجد لله ويحمده ثم يأذن له فى الشفاعة بقول الله له اشفع . وقال أبو هريرة : من أسعد الناس بشفاعتك يارسول الله ؟ قال : « من قال لا إله إلا الله خالصا من قلبه »[1] فتلك الشفاعة لأهل الإخلاص وهى محرمة على المشرك ، وحقيقتها تفضل الله سبحانه على أهل الإخلاص بمغفرته بواسطة دعاء من أذن له أن يشفع ليكرمه ، وينال المقام المحمود ، فالشفاعة التى نفاها القرآن ما كان فيها شرك ، والتى أثبتها هى ما كانت بإذنه ، ولمن رضى عنه ، وقد بين النبى ﷺ أنها لا تكون إلا لأهل التوحيد والإخلاص .

---

(١) فتح البارى جـ ١ ص ١٩٣ وجـ ١١ ص ٤١٨ .

رقم الإيداع ٧٢٤٠ / ١٩٨٩

هجر

للطباعة والنشر والتوزيع والإعلان

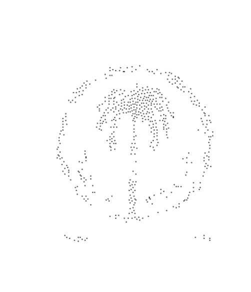
المكتب : ٤ ش ترعة الزمر - المهندسين - جيزة

☎ ٣٤٥٢٥٧٩ - فاكس ٣٤٥١٧٥٦

المطبعة : ٢ ، ٦ ش عبد الفتاح الطويل

أرض اللواء - ☎ ٣٤٥٢٩٦٣

ص . ب ٦٣ إمبابة




مكتبة لينة للنشر والتوزيع
دمنهور ت. ٠٤٥/٣٢٨١٩٩